بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله ؛ نستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، مَنْ يهده الله ؛ فلا مضلَّ له ، ومَنْ يُضلل ؛ فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١ ﴾ [الأحزاب] .

أما بعد ؛ فإن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدى هدىُ محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتُها وكلَّ محدثةٍ بدعة وكلَّ بدعة ضلالة ، وكلَّ ضلالة فى النار

قال الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه « ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق فإن الحق قديم لا يبطله شيء ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل » .

هذه العبارة الرائعة من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى قاضيه أبى موسى الأشعرى ، ينبهه وينبه الأجيال من بعده إلى مبدأ هام ينبغى أن يتربى عليه الفرد والمجتمع المسلم ألا وهو المراجعة .

فالإنسان بطبعه خطّاء ، وكلما تحرك وعمل كلما زاد زلله ؛ لأنه لا عصمة بعد النبوة ولا سبيل بالطبع للوقوف على هذا الخطأ ومعالجته إلا بالمراجعة ، وهو أمر لا غنى عنه للفرد ، وللجماعة بل وللأمة جميعاً ، والمراجعة أول طريق الأوبه للّه والتصحيح ، لذا كان الأمر الشرعى بالمحاسبة والمراجعة . والآن لماذا المراجعة ؟

أسباب كثيرة تُوجب هذه المراجعة أبرزها اكتشاف الأخطاء والأوبة منها ، وتصحيح المسار ، وكف النفس عن العجب والغرور بما تعلم من أخطائها لتتواضع للّه وتخشع له ، هذا فضلاً عن أثرها فى إثراء الفقه بالحوار مع النفس والغير ، وتنشيط روح الاجتهاد ، والتخلى عن الجمود على القديم وإدعاء العصمة له مع

تأكيد مرجعية الشرع ، والتخلص من المرجعيات الدنيوية للأشخاص أو المبادئ والأفكار ، ولا يخفى أثر تكرار المراجعة فى تربية المجتمع على إحسان الظن بالناصحين ، وافتراض الصدق فيهم ، فالحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق الناس بها [1] ، وكثيراً ما يغفل المسلم عن القصور فى عمله أو عيوب نفسه حتى يرشده ناصح رشيد إليها .. وتزداد المسألة أهمية وحيوية لأولئك الذين يتصدون لقيادة الناس فإن المقدم إذا زَلَّ زُلَّ بزلته آخرون .. لذا فمراجعة المقدم تكون مهمة له ولغيره .

إذن .. هى مسألة فى منتهى الأهمية للفرد المسلم ، وللجماعة المسلمة لتصحيح مسارها وضبط حركتها .

فلماذا إذن لا يحدث هذا .. ولماذا تقصر الجماعات المسلمة فى واجب كهذا . ولماذا نتيجة ذلك تتضاعف مواطن القصور ، وتتضخم بمرور الأزمان بدلاً من أن تعالج وتوضع فى موضعها الصحيح .

---

(١) رواه الترمذى [٢٦٨٧] وابن ماجه [٤١٦٩] وقال الألبانى : ضعيف جداً

الحق أن هناك كثيرا من المعوقات تعطل الإفادة من هذا الفرض الهام نسوقها على وجه الاختصار فمنها :

١ – إحسان الظن بالنفس والإعجاب بالعمل :

فالإنسان مفتون بما يصنع ، ولذا فكثيرا ما تستدرج الجماعات والأمم حين يتسرب إليها هذا الغرور والعجب والاتكال على صلاح موهوم فتحسب إنها بلغت بأعمالها الكمال الذى لا ينبغى أن يفتش معه عن عيوب أو قصور ، بينما يعلق القرآن الكريم على صحب النبى صلى اللّه عليه وسلم لما انكسروا فى أُحد ﴿ أَوَ لَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

فأى جماعة بعد خير القرون تخلوا من نقص وقصور .

ومن أكثر ما ينمى هذا العجب حسن الظن بالنفس وتحقير عمل الغير والاغتراز بالنفس ومغالاة الاتباع ، وغلوهم فى إطراء طائفتهم ومشايخهم وثنائهم عليهم فى وجوههم .

٢ – تقديس المقدمين والمغالاة فيهم :

وما أعظم سيد الخلق صلى الله عليه وسلم وهو ينهى عن المغالاة

فى تقديسه وهو يرد على الرجل الذى بالغ فى مدحه - وهو أهلٌ لكل مدح - فيقول « لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد اللَّه ورسوله » [1] .

والعجب كل العجب أن ندرج أسماء سادة الصحب الكرام أبا بكر وعمر وعثمان هكذا دون ألقاب ، بينما نستنكف أن نُنادى إلا بحشد من ألقاب التكريم كالمشيخة والسماحة والفضيلة ، وشتان بين الطائفتين .

وما أعظم الفتنة على التابع والمتبوع بسبب هذا التقديس الموضوع فى غير موضعه .

٣ - الجهل والهوى :

وكلاهما ظلمة تحول بين المرء ورؤية حقائق الأشياء ، وأسوأ الجهل جهل المرء بنفسه وبأسقامها وأدوائها ، والمرء عدو ما يجهل حتى وإن كان فيه خيره .

وأكبر مساوئ الجاهل أنه يكره أن يوصف بالجهل أو يظهر منه ما يدل على ذلك ، خاصة بين اتباعه إن كان مقدماً فيهم ، ولذلك فهو يهرب من مكاشفة نفسه ومحاولة تقويمها .

---

(١) رواه البخارى [٣٢٦١] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

٤ – مصادرة الرأى الآخر وإرهابه :

وهو ثمرة من ثمرات سنين القهر والاستبداد الطويلة التى عانى منها المجتمع المسلم حتى اعتاد الناس كل الناس والجماعات الإسلامية منهم على الرأى الأوحد ، ومصادرة الرأى الآخر وإخراجه من دائرة الحق ، بل والدين .. وما أسهل أن تطال الأحكام الجاهزة الحاسمة كل من له رأى آخر ، وسرعان ما تطلق عليه الألقاب الجاهزة فهو متخاذل أو منافق أو خارجى أو مرجئ أو ..إلى آخر هذا القاموس المعروف

فإن لم يكن لك نصيب من هذه الألقاب فانتظر تشهيرا يطال دينك أو عرضك أو أهلك ذما وتحريضا عليك .

ولذا فكل من يفكر فى مراجعة نفسه ، أو تقويم بعض مما يعتقد ، أو يعمل – بتردد – كثيراً إما توقعاته لحملة الإرهاب هذه ، والاتهامات المتنوعة كالفتنة فى الدين وعدم الثبات ومثل ذلك .

٥ – شماتة الشانئين :

وذلك أن الكثيرين لا يفرقون بين النصيحة والتعيير ، وما إن يتراجع أحدهم عن رؤية يراها حتى تنطلق الأبواق تعيره بهذا التراجع وتطعن فيما عليه من منهج ، وترى فى ذلك فرصتها فى

الدعاية لمناهجها عن طريق السخرية من الآخرين مظهرة الشماتة فيه بينما المفروض فى هذه الظروف أن يمدح على مراجعته وتراجعه عن الخطأ لا أن يذم على خطئه المتراجع عنه .

٥ – الفهم الخاطئ بأن التصويب يعنى اهدار الفضل :

يظن البعض – مخطئا – : أن المجتهد المتبوع ينبغى أن نقبل قوله كله وندافع عنه ولا ننكر عليه خطأ ، وإن عُرِىَ عن الصواب ، وذلك حفظاً لفضله ، ومكانته وإن مجرد مناقشة ذلك وطرح الرأى المقابل انتقاص من فضل ذلك المجتهد ، وإهدار لمكانته .. بينما لا يخلو مجتهد من خطأ أو خلل لعدم العصمة ، والمولى عز وجل بيّن أن المجتهد مأجور ولو كان مخطئا ؛ أى إن فضله محفوظ حتى ولو أخطأ .. فالنقد هنا ليس مذموماً ، وإنما يُذم عندما يتحول من نقد غرضه سد الخلة إلى نقد يراد به الهدم والإهدار وإن من الخلل أن يتحول الحب إلى تقبل الصواب والخطأ ، والبغض إلى إهدار الصواب كما يهدر الخطأ ، والحق المطلق لا يكون فى شخص أو جماعة كائنا من كانوا – بعد موت النبى صلى اللّه عليه وسلم – وكل من طلب الحق مأجور حتى وإن أخطأه ولا يوصف بالمبتدع والفاسق طالما بذل فى ذلك الوسع ،

وفى هذا يقول الحافظ الذهبى كلاماً جميلاً : « لو أنا كلما أخطأ إمام خطأ فى اجتهاده فى آحاد المسائل خطأ مغفوراً له قمنا عليه وبدعناه وهجرناه لما سلم معنا ابن نصر ولا ابن منده ولا من هو أكبر منهما » (١) .

٦ – العلاقة التصادمية بين فصائل العمل الإسلامى :

الأصل أن تكون العلاقة بين فصائل العمل الإسلامى علاقة تكاملية تضيف كل منها جهدها إلى الأخرى ، وتعذر كل منها الأخرى إن قصرت .. ولكن وللأسف الشديد ، تشوب العلاقة بين فصائل العمل الإسلامى روح التحفز والتربص والنظرة الحزبية الضيقة والرغبة فى التنامى على حساب بعضهم البعض .. وهذا يجعل من عملية المراجعة والرجوع عن الخطأ من الصعوبة بمكان حذرا من الوقوع تحت براثن الجماعات الأخرى ، واستخدام ذلك فى التشهير .

وأخطئ هؤلاء حين اعتبروا المراجعة والتراجع عيبا يُشهر به والأولى أن تكون سبباً للمدح والإشادة وإن تلقى مثل هذه الخطوة .. التشجيع لتتسع دائرة المراجعة بين الجميع .

---

(١) سير أعلام النبلاء [١٤/٤٠] .

وفى هذا المعنى روى الحديث الشريف : « لا تظهر الشماتة لأخيك فيعافيه اللَّه ويبتليك » [1] .

٧ - توهم فتنة الأتباع :

وهى مشكلة خطيرة أن يظن البعض أن اطلاع الأتباع على الخطأ المتراجع عنه والإقرار بذلك الخلل والرجوع عنه من شأنه أن يردهم عن التمسك بالمنهج .. بل وربما ينفرهم عن الطريق كله ، وذلك هو الخطأ كل الخطأ إذ ينبغى أن يتربى الجميع على أن الإنسان بطبعه خطّاء وأن العصمة ذهبت بذهاب الرسل وأن الإنسان ما دام يعمل فلابد أن يخطئ ، بينما لا يخطئ الساكن المتقاعد .

ينبغى أن يتعلم ذلك عمليا لا نظرياً فما أكثر ما نردد ذلك ولكن تطبيقه غير ذلك ، أن الفتنة إنما تكون فى الاستمرار على الخطأ ، وإن الحق والصواب لا يكونان أبداً مصدراً للفتنة ، وإن من يفتنه الحق أبعده اللَّه .

(١) رواه الترمذى [٢٥٠٦] عن واثلة بن الأسقع رضى الله تعالى عنه وقال الألبانى : ضعيف

obeikandl.com

٨ – الخطأ فى مفهوم الثبات على الحق :

« الثبات على الحق واجب » حقيقة لا مراء فيها ، ونحن مأمورون أن ندور مع الحق حيث كان ، هذا الأصل لا يعنى أن اتصور أن الحق هو اجتهادات البشر ؛ لأن اجتهادات البشر تصيب وتخطئ ، ولسنا مطالبين بالتمسك بها على كل حال أصابت أو أخطأت ، بل إن المتجرد فى الثبات على الحق لا يتردد فى ترك اجتهاداته ما وجد الصواب فى غيرها ، ولا يعد ذلك عدم ثبات على الحق بل إن ذلك هو عين الثبات على الحق ، وكم رأينا أصحاب النبى صلى اللّه عليه وسلم يغيرون من اجتهاداتهم لما تبين لهم الحق فى خلاف ذلك .. بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر غيّر موضع نزوله لما أشار عليه « الحباب بن المنذر » بمكان هو أصلح ، ولم يعتبر أن بقاءه فى مكانه الأول من الثبات على الرأى .. فإذا غير سادتنا اجتهاداتهم أفلا نغير نحن ذلك ، ومن نحن إلى جوار هؤلاء .

٩ – الضغوط المتوالية ، وسياسات الإجهاض وتجفيف المنابع :–

وكلها سياسات أمنية يراد بها مطاردة تواجد الجماعات ومحاولة تخليص المجتمع منها .. وهذه الضغوط بدلا من أن تحقق هذه

الأهداف فإنها تشيّع بينهم ضرراً أشد إذ أنها لا تعطى فرصة للشباب أن يتوقف ليراجع نفسه بصدق لينظر ماذا قدم ، وما مدى موافقة ما قدمه للصواب وللنهج السليم .. بل على العكس تزيد من تشبثه بفكره وعقيدته إذ أنه ليس من السهل أن يتخلى عن فكرة أُوذى بسببها ، وضحى بزهرة شبابه من أجلها ، وهل يذهب كل ذلك هباءا .

نعم ؛ شدة الظروف والتضييق معوق أساسى للمراجعة ، وحاجز أمام العقل أن يصحح ويسدد ويقوم خاصة بين الشباب الذى تسيطر عليه المثالية والحماسة وشدة الاندفاع وقلة التروى ، وهى خصائص لا تنفك عنه بطبيعته [1] .

وبعد ..

هذه بعض معوقات المراجعة هانحن نشير إليها موجزة لننبه أنفسنا ، وإخواننا إلى السعى لتجاوزها وتذليلها ، لا نطمع من ذلك إلا إرضاء اللّه عز وجل ، وهى حرية بالبحث عن معالجة لها تبدأ باستحضار استرضاء اللّه عزوجل وهو أول أهداف المؤمن

---

(١) راجع بحث مفصل حول هذا الموضوع لمحمد مصطفى المقرئ لمجلة المنار الجديد « عدد ١٣ » .

بالبحث عن الحق حيث كان وتنتهى بالجرأة على مواجهتها بعواقبها والاستعانة باللَّه على تذليلها .

ونعود لنقرر أن الثبات الصحيح على الحق إنما يكون فى الدوران معه حيث دار لا بالوقوف حيث تتجمد العقول والاجتهادات حتى وإن فارقها الحق .

واللَّه نسأل أن يهدينا سواء السبيل .

○ ○ ○

obeikandl.com

بين يدى البحث

قال الله تبارك وتعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . [آل عمران : ١١٠] .

obeikandl.com

obeikandl.com

مدخل

أرسل اللَّه سبحانه وتعالى رسوله محمداً صلى اللَّه عليه وسلم برسالاته الخاتمه ، وقضى أنه لا نبى بعده [1] ، وأن رسالة الإسلام

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠]

وروى البخارى [٣٣٤٢] ومسلم [٢٢٨٦/ ٢٢] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين .

وعند ابي داود [٤٢٥٢] عن ثوبان رضى الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : .. وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبيٌّ وأنا خاتم النَّبيِّين لا نبيَّ بعدي. وصححه الألباني

وعند ابن ماجة [١٢١] عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه=

باقية إلى قيام الساعة [1] ، ولذلك كان طبيعيا أن تحمل هذه الرسالة فى داخلها عوامل خلودها التى تحفظ عليها حيويتها وبقاءها إلى الأبد ، وتجعلها صالحة لقضاء مصالح العباد الآخروية والدنيوية على مر الأزمان والأمكنة .

= قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلي رضى الله تعالى عنه: « أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوْسَى إِلاَّ أَنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدي » وصححه الألباني .

(١) روى النسائي فى المجتبى [١٥٧٨/١٨٨/٣] عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى خطبته يحمد الله ويثنى عليه بما هو أهله ثم يقول من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادى له إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار ثم يقول بعثت أنا والساعة كهاتين وكان إذا ذكر الساعة أحمرت وجنتاه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه نذير جيش يقول صبحكم مساكم ثم قال من ترك مالا فلأهله ومن ترك دينا أو ضياعا فالى أو على وأنا أولى بالمؤمنين .

فكان من عوامل خلودها أن شُرع الجهاد ليحمى المسلمون أمتهم ودعوتهم من العادية الخارجة عنهم من غيرهم ، ولتحطيم عناد المحاربين لأمة الإسلام ودولته من أعدائهم .

وشُرعت الدعوة لنشر الدين وتوسيع رقعته لاستنقاذ الناس من ربقة الضلالة والشرك إلى رحبة الإسلام الفسيحة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام وسماحته .

وشُرعت الحسبة - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - لحماية المجتمع من الداخل أى من أبنائه إذا حادوا عن تعاليمه .. فيحمى العقيدة والفكر من الابتداع ليحفظ لها صفاءها ونقاءها ويحمى تلك الشرائع من التحريف والتزييف ، ويحمى تعاليمها فى واقعها التطبيقى من أن يتسرب إليها التهاون بها والتقصير فى حقها والعمل فيها بالمعصية والدعوة اليها ليكون التطبيق العملى لتلك الرسالة الغراء معبراً تعبيراً صادقاً عما تحمله من مبادئ عظيمة ، فلا يتسرب الخلل إليهما على الأصل النظرى أو التطبيق العملى مسبباً تآكلاً تدريجيا فى ارتباط المجتمع بهما .

ولذلك كان طبيعيا أن يكون لتلك الفريضة أهميتها العظيمة على صعيدى تربية الفرد والمجتمع المسلم ليكون المجتمع إيجابيا تجاه

ما يراه من خلل فيسعى إلى إصلاحه ، وتكون تلك الإيجابية جزءًا من تكوينه باعتبارها فرضا دينيا تماماً مثل الصوم والصلاة وغيرها من الفرائض حتى لا ينخر سوس السلبية والأنانالية فى بناء المجتمع فيألف الناس الانحراف ويتعايشون معه إلى أن ينهار المجتمع ويسقط ، والحديث عن وجوب الحسبة على الكفاية أشهر من أن يُنكر وأدلته منتشرة فى كتاب اللَّه العظيم وسنة نبيه وأقوال أهل العلم منها :

قول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

فالآية تجعل الحسبة مناط الفلاح فى الدنيا والآخرة .. والأمر وإن كان للوجوب إلا أن التعبير القرآنى مستخدماً « منكم » يدل على أنها فرض كفاية بمعنى أنها مفروضة على عموم المجتمع لا على أفراد بمعنى : أن المجتمع مطالب أن يفرز من أفراده وأجهزته من يستوفى شروط المحتسب من علم ورفق وغيرها من شروط ، وأن يكون منهم من يقوم بهذا الفرض نيابة عن المجتمع فإن قام به من يكفيه سقط الفرض عن المجتمع كله ، وإن لم يقم فالإثم لاحق بكل من يقدر عليه شروطاً وأداءا ولا يفعل .

ويقول تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [آل عمران] .

قال الإمام الغزالى : « فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر »[1] .

ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ ﴾ [التوبة : ٧١] . فالآية قرنت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بأهم فرضين إسلاميين هما الصلاة والزكاة تنبيها على أهميتهما وأنها صفة أصيلة فى المؤمنين والمؤمنات ثم جعلت ذلك من أسباب الرحمة الربانية .

---

(١) إحياء علوم الدين [جـ٢ / ٣٠٣] .

ويقول تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ... ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

فالآية فى مدحها للأمة المسلمة ووصفها بالخيرية ، وصفتهم بأبرز ما يتميزون به من صفات وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ويقول تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة] .

لما كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مناطاً للرحمة والخيرية كان تركه سبباً للعن والطرد من رحمة اللّه - كما حدث مع بنى إسرائيل .

وفى هذا المعنى ورد عن عبد الله بن مسعود قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل ، كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب

بعضهم ببعض » ثم قال : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [المائدة] ثم قال : « كلا ! والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدى الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً » (١) .

وهذا الحديث مع ما بين من عقوبة نزلت ببنى إسرائيل نتيجة تقصيرهم فى هذه الفريضة بتشتيت شملهم وتنافر قلوبهم إلا أنها تشير إلى أمر هام وهو أن رفض القلب للمنكر ينبغى أن ينعكس على الإنسان المسلم وأن يزول عن المنكر ما دام المنكر لم يزل .

وفى حديث أبى بكر الصديق : « ما من قوم عملوا بالمعاصى

---

(١) رواه أبو داود [٤٣٣٦] وضعفه الألبانى .

وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم اللَّه بعذاب من عنده » [1] .

والحديثان يبينان عقوبات لترك هذه الفريضة غير ما سبق كإنزال العذاب والعقوبة أو تسليط الأشرار ، وعدم استجابة الدعاء وغيرها .

والحق أن الآيات والأحاديث التى تعرضت لهذه الشريعة الربانية أكثر من أن تحصيها تلك الوريقات ، وإن كنا قد أشرنا إلى بعض

---

(١) روى أبوداوود [٤٣٣٨] عن أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه قال : بعد أن حمد الله وأثنى عليه يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير موضعها ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة : ١٠٥]
وإنا سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم : يقول إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده .
وقال عمرو عن هشيم : وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب .
وصححه الألباني .

منها فلنبين عظم اهتمام الإسلام بها وشدة إلحاح الشرع عليها بما يناسب أهميتها والتنويع فى أساليب الأمر ، والترغيب فيها والترهيب من تركها ، وتشديد العقوبات على ذلك ، كل ذلك ليترسخ فى قلوب المؤمنين الإيجابية تجاه التفريط فى شرائع الدين وكراهية ذلك والسعى لتصحيح الخلل حماية للمجتمع منه تجاه هذا النهج الربانى الذى يلزم الأمة ألا يكتفى أفرادها وهم يرون أمامهم الجرائم تُرتكب من سرقة أو غصب أو غيرها ألا يكتفوا بهزّ أكتافهم والانصراف تاركين الجريمة تنتهك حرمة المجتمع بل تدعوهم للمساهمة فى حماية المجتمع وتجعل من ذلك مناطاً للثواب والعقاب ، وتجعل من تقصيرهم سبباً إلى اللعن والطرد من الرحمة الربانية ، لذلك كان طبيعياً أن يسارع المؤمنون على مر العصور لتنفيذ الأمر الربانى .. وكانت إيجابية المجتمع تجاه الانحراف وسعيه للتصحيح عاملاً أساسياً فى رقى المجتمع وحمايته .

وكان طبيعيا أيضاً أن تكون هناك تجاوزات فى تنفيذ الأمر إذ أن الناس جميعاً لا يمكن أن يكونوا على علم بفقه الأمر ، أو يتحقق فى جميع المواصفات اللازمة فيمن يتصدى له .. بل ومثل كل أمر كثيراً ما يدخل أصحاب الأهواء والأغراض فيه فيزيدوا من التجاوز والخلل فى التطبيق .

وبالطبع سعى المجتمع المسلم منذ أيامه الأولى وإدراكاً منه لأهمية إيجابية أفراد المجتمع أن يضع الآلية المناسبة للقيام بالأمر ، وتدارك ما يمكن تداركه من تلك التجاوزات أو التخفيف منها ما أمكن مع الحفاظ على الصورة التى تفيد المجتمع من هذا الفرض العظيم ، وتحميه من التجاوزات فى تطبيقه وتعالجها بما يصلحها .. فكان أن عينوا جهازاً رسميا للحسبة يقوم هو بالتصدى للانحراف وينتصب للاستعداء عليه ، متخصصاً فى ذلك - وهو ما يدخل فى عمل الشرط فى هذه الأيام - وهذا الجهاز يملك من السلطة والقوة ما يمكّنه من حماية المجتمع من هذه الانحرافات وهو المنوط به بقوة السلطة للتصدى مستعيناً بالجند والأعوان ، وبذلك ضاق كثيراً مجال المحتسب المتطوع .

ثم تصدى العلماء لتفقيه الناس بحدود ذلك الباب من الفقه وبيان شروطه وآدابه .

ثم كانت محاسبة المتجاوزين والمقصرين بقدر تجاوزهم تفهماً للدافع النبيل الذى يدفعهم لفعل ما فعلوا .

والحق أن دور الاحتساب فى الحفاظ على تماسك المجتمع المسلم والحفاظ على كيانه من التهاوى كان عظيماً ..وبقدر وجود هذا

الدور الشعبى فى التفاعل الإيجابى مع مؤسسات المجتمع ، وبقدر ما كان التفهم لهذا الدور واتساع الصدر له ، وتشجيعه - بالحدود الشرعية - بقدر ما تمتع المجتمع بالهدوء والاستقرار . بينما كان انتشار السلبية فى المجتمع والتجاهل والإعراض فى بعض الأوقات سبباً فى انتشار كثير من مظاهر الخلل والانحراف والمجاهرة ، والاستعلان بها مما أدى إلى إنهيار وتفسخ وفساد المجتمع .

ولقد رأينا من أثر تلك السلبيه فى بعض الأحيان فى رؤية الناس للجرائم البشعة كالاغتصاب والسرقة وغيرها تحدث عيانا فى الميادين العامة ، ولا يحرك آحاد الناس ساكنا مكتفين بمصمصة شفاههم وهز أكتافهم ثم الانصراف خوفاً من الوقوع فى مشاكل هم فى غنى عنها ، بينما لو استشعروا أن دورهم فى التصدى لهذه الجرائم لا يقل عن دور الأجهزة المنوط بها ذلك ، والتى قد تغيب أحياناً عن متابعة كل ما يحدث من جرائم ، وإن هذه المجازفة فى التصدى للمجرمين تكون مصدراً للرحمة والرضا والثواب الربانى .. بل وإن تلك الأجهزة المنوط بها التصدى للمجرمين يصعب عليها أن تقوم بدورها دون تعاون فعال من أفراد المجتمع حتى بعد انتهاء الجريمة ، وذلك فى الضبط والإثبات لو أدرك الناس كل ذلك

لسهلوا كثيراً من فرصة حماية المجتمع من هذه الجرائم ما دامت موافقة للشرع .

ولا يفوتنا الإشارة إلى دور أجهزة الإعلام والدعوة فى حث الناس على التفاعل الإيجابى مع الأجهزة المتصدية للجرائم ومساعدتها فى حماية المجتمع ، وإن تلك الإيجابية فرض كغير ذلك من الفرائض يطالب به الناس من أهل الإيمان وتبصير الناس بما قد يقعون فيه من تجاوزات خلال أدائهم لذلك الدور وتصحيح أخطائهم تفهما للدور الشعبى فى حماية المجتمع ، وحتى لا تترك الساحة للمجرمين يرتعون فيها .

والحق أن هذا الفرض عانى الكثير من الغلو فى تنفيذه حتى تصرف البعض وكأنه كل الدين ، ومعيار الإيمان الذى يقاس به الناس ، وتجاهل هؤلاء أنه فرض ضمن فرائض ، وأنه فرض على الكفاية وأنه فرض آنى يرتبط بلحظة المنكر ثم يزول ، بينما فرض مثل الدعوة هى التى يبنى بها المجتمع ، ويبصر بها الناس ، ويربى بها المسلمون على الامتناع عن المخالفة وترسيخ الدين فى القلوب. فالحسبة أمر ربانى ولكنها بعض الدين لا كله ، وهى بعض من

الدعوة التى هى عماد الدين ووسيلة نشره ؛ ولذا ينبغى أن يؤخذ الدين والعمل به كله وتكون الحسبة بعضه بحيث لا تطغى على فرائض أخرى قد تكون فى بعض المواضع أولى وأهم .

وبعد .. ونحن إذ نشارك فى التصدىلقضية الغلو فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بجهدنا المتواضع .. إنما نسعى للمساهمة فى تفعيل دور أفراد المجتمع بصورة خالية من التجاوز ، والبعد عما شاب التطبيق فى مراحل سابقة من تجاوزات كان فيها من الأضرار والمخالفات الشىء الكثير مما فرغ تنفيذ هذه الفريضة من كثير من فاعليتها وأضر بها وبمن قام على تنفيذها .

والله نسأل أن يهدينا إلى سواء السبيل .

○○○